كيمياء السعادة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله الذي أصعد قوالب الأصفياء بالمجاهدة، وأسعد قلوب الأولياء بالمشاهدة، وحلى ألسنة المؤمنين بالذكر، وجلى خواطر العارفين بالفكر، وحرس سواد العباد عن الفساد، وحبس مراد الزهاد على السداد، وخلص أشباح المتقين من ظلم الشهوات، وصفى أرواح الموقنين عن ظلم الشبهات، وقبل أعمال الأخيار بأداء الصلوات، وأيّد خصال الأحرار بأسدّ الصِّلات.

أحمده حمد من رأى آيات قدرته وقوته، وشاهد الشواهد من فردانيته ووحدانيته، وطرق طوارق سرّه وبرّه، وقطف ثمار معرفته من شجر سجده وجُوده، وأشكره شكر من اخترق واغترف من نهر فضله وإفضاله.

وأومن به إيمان من آمن بكتابه وخطابه وأنبيائه وأصفيائه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله بعثه لأصلاب الفسقة والفجرة قاصماً، ولعُرَى الجاحدين والمارقين فاصماً، ولباغي الشك والشرك قاهراً، ولأتباع الحق والإحسان ناصراً؛ فصلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

عنوان معرفة النفس

اعلم أن الكيمياء الظاهرية لا تكون في خزائن العوام وإنما تكون في خزائن الملوك، فكذلك كيمياء السعادة[1] لا تكون إلا في خزائن الله سبحانه وتعالى؛ ففي السماء جواهر الملائكة، وفي الأرض قلوب الأولياء العارفين، فكل من طلب هذه الكيمياء من غير حضرة النبوة[2] فقد أخطأ الطريق، ويكون عمله كالدينار البهرج[3]، فيظن في نفسه أنه غني وهو مفلس في القيامة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ [ق: ٢٢] ومن رحمة الله سبحانه وتعالى لعباده أن أرسل إليهم مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي يعلمون

(١) كيمياء السعادة: تهذيب النفس باجتناب الرذائل وتزكيتها عنها، واكتساب الفضائل وتحليتها بها.

وقد عرف الجرجاني أيضاً كيمياء العوام وكيمياء الخواص. فكيمياء العوام هي استبدال المتاع الأخروي الباقي بالحطام الدنيوي الفاني. وكيمياء الخواص هي تخليص القلب عن الكون باستئثار المكوّن. (انظر كتاب التعريفات للجرجاني - ص ١٨٩ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت).

(٢) كيمياء السعادة هذه موجودة - كما قال الغزالي - في خزائن الله سبحانه، لذلك فلا يمكن الحصول عليها إلا بواسطة النبي ﷺ، فهو الذي بلّغ الوحي وأنار الطريق. والاتجاه الكلي إلى حضرة النبي ﷺ، واستحضار ذاته ومثاله في الأذكار والأفعال هو الكفيل بتهذيب النفس عند الخاصة والعامة. أما أخذ هذه الكيمياء عن بعض كبار الشيوخ والعارفين، فهو أخذ غير مأمون العواقب، لأن انتفاع المريدين من الشيوخ محدود بمدى معارف هؤلاء الشيوخ وأسرارهم، ولما قد يعتري هؤلاء العارفين من عوارض دنيوية مصحوبة بالمن على المريد أو بالغضب عليه، مما قد يؤدي إلى تعثر الطريق أمام السالك. ولكن النبي ﷺ معصوم وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، فالأخذ منه هو الطريق الأسلم، واستحضاره فينا هو الضمان الأثبت لبلوغ المراد.

(٣) البهرج: الباطل.

الناس نسخة الكيمياء، ويعلمونهم كيف يجعلون القلب في كُور[1] المجاهدة، وكيف يطهرون القلب من الأخلاق المذمومة، وكيف يؤدونه لطرق الصفاء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [الجمعة: ٢] أي يطهرهم من الأخلاق المذمومة ومن صفات البهائم، ويجعل صفات الملائكة لباسهم وحليتهم.

ومقصود هذه الكيمياء أن كل ما كان من صفات النقص يتعرى منه، وكل ما يكون من صفات الكمال يلبسه. وسر هذه الكيمياء أن ترجع من الدنيا إلى الله كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾ [المزمل: ٨] وفضل هذه الكيمياء طويل.

(١) الكور: مجمرة الحداد. ويعني بقوله: «يجعلون القلب في كور المجاهدة» أي يطهرونه بالمجاهدة كما يطهر الحداد الحديد من الصدأ بالنار.

فصل في معرفة النفس

اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وسنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [فصلت: ٥٣] وقال النبي ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» (١) وليس شيء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك؟

فإن قلت إني أعرف نفسي، فإنما تعرف الجسم الظاهر الذي هو اليد والرجل والرأس والجثة، ولا تعرف ما في باطنك من الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا اشتهيت طلبت النكاح، وإذا جعت طلبت الأكل، وإذا عطشت طلبت الشرب؛ والدواب تشاركك في هذه الأمور، فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدري أي شيء أنت، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خلقت، وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاؤك.

وقد جمعت في باطنك صفات، منها صفات البهائم، ومنها صفات السباع، ومنها صفات الملائكة؛ فالروح حقيقة جوهرك وغيرها غريب منك وعارية عندك، فالواجب عليك أن تعرف هذا، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة؛ فإن سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم والنكاح، فإن كنت منهم فاجتهد في إعمال الجوف والفرج. وسعادة السباع في الضرب والفتك، وسعادة الشياطين في المكر والشر والحيل، فإن كنت منهم فاشتغل باشتغالهم. وسعادة

(١) قال أبو المظفر بن السمعاني في القواطع: إنه لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي؛ يعني من قوله. وقد وضع الحافظ السيوطي فيه تأليفاً سماه «القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه».

الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية وليس للغضب والشهوة إليهم طريق، فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب، وتعلم أن هذه الصفات لأي شيء ركبت فيك، فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها ولكن خلقها حتى تكون أسراك، وتسخرها للسفر الذي قدامك، وتجعل إحداها مركبك والأخرى سلاحك حتى تصيد بها سعادتك، فإذا بلغت غرضك فقاوم بها تحت قدميك، وارجع إلى مكان سعادتك، وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار العوام درجات الجنة، فتحتاج إلى معرفة هذه المعاني حتى تعرف من نفسك شيئاً قليلاً، فكل من لم يعرف هذه المعاني فنصيبه من القشور، لأن الحق يكون عنه محجوباً.

فصل

إذا شئت أن تعرف نفسك فاعلم أنك من شيئين: الأول هذا القلب، والثاني يسمى النفس والروح. والنفس هو القلب الذي تعرفه بعين الباطن. وحقيقتك الباطن؛ لأن الجسد أول وهو الآخر والنفس آخر وهو الأول؛ ويسمى قلباً، وليس القلب هذه القطعة اللحمية التي في الصدر من الجانب الأيسر، لأنه يكون في الدواب والموتى. وكل شيء تبصره بعين الظاهر فهو من هذا العالم الذي يسمى عالم الشهادة، وأما حقيقة القلب فليس من هذا العالم، لكنه من عالم الغيب فهو في هذا العالم غريب، وتلك القطعة اللحمية مركبة، وكل أعضاء الجسد عساكره وهو الملك، ومعرفة الله ومشاهدة جمال الحضرة صفاته، والتكليف عليه والخطاب معه، وله الثواب وعليه العقاب، والسعادة والشقاء تلحقانه والروح الحيواني في كل شيء تبعه ومعه. ومعرفة حقيقته ومعرفة صفاته مفتاح معرفة الله سبحانه وتعالى، فعليك بالمجاهدة حتى تعرفه لأنه جوهر عزيز من جنس جوهر الملائكة، وأصل معدنه من الحضرة الإلهية، من ذلك المكان جاء وإلى ذلك المكان يعود.

فصل

أما سؤالك ما حقيقة القلب، فلم يجيء في الشريعة أكثر من قول الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ [الإسراء: ٨٥] لأن الروح جزء من جملة القدرة الإلهية وهو من عالم الأمر، قال الله عز وجل: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ [الأعراف: ٥٤] فالإنسان من عالم الخلق من جانب، ومن عالم الأمر من جانب، فكل شيء يجوز عليه المساحة والمقدار والكيفية فهو من عالم الخلق[1]؛ وليس للقلب مساحة ولا مقدار، ولهذا لا يقبل القسمة، ولو قبل القسمة لكان من عالم الخلق، وكان من جانب الجهل جاهلاً ومن جانب العلم عالماً، وكل شيء يكون فيه علم وجهل فهو محال. وفي معنى آخر هو من عالم الأمر؛ لأن عالم الأمر عبارة عن شيء من الأشياء لا يكون للمساحة والتقدير طريق إليه. وقد ظن بعضهم أن الروح قديم فغلطوا. وقال قوم إنه عَرَضٌ فغلطوا، لأن العرض لا يقوم بنفسه ويكون تابعاً لغيره. فالروح هو أصل ابن آدم، وقالب ابن آدم نبع له، فكيف يكون عرضاً! وقال قوم إنه جسم فغلطوا، لأن الجسم يقبل القسمة. فالروح الذي سميناه قلباً وهو محل معرفة الله تعالى ليس بجسم ولا عرض بل هو من جنس الملائكة.

ومعرفة الروح صعبة جداً[2]، لأنه لم يرد في الدين طريق إلى معرفته لأنه لا

(١) سئل القحطبي عن الروح فقال: لم يدخل تحت ذل كن. ومعناه عنده أنه ليس إلا الإحياء، والحيّ والإحياء صفة المحيي، كالتخليق والخلق صفة الخالق. واستدل من قال ذلك بظاهر قوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾. قالوا: أمره كلامه، وكلامه ليس بمخلوق. كأنهم قالوا: إنما صار الحيّ حيًّا بقوله كـن حيًّا؛ وليس الروح معنى في الجسد حالاً مخلوق كالجسد. (انظر التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي - ص ٦٨ - دار الكتب العلمية - بيروت).

(٢) قال الجنيد: الروح شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، ولا يجوز العبارة عنه بأكثر من موجود، لقوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ وقال أبو عبد الله النباجي: الروح جسم يلطف عن الحس، ويكبر عن اللمس، ولا يعبر عنه بأكثر من موجود. =

حاجة في الدين إلى معرفته، لأن الدين هو المجاهدة والمعرفة علامة الهداية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ومن لم يجتهد حق اجتهاده لم يجز أن يتحدث معه في معرفة حقيقة الروح. وأول أس المجاهدة أن تعرف عسكر القلب، لأن الإنسان إذا لم يعرف العسكر لم يصح له الجهاد.

فصل

اعلم أن النفس مركب القلب، وللقلب عساكر كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ [المدثر: ٣١] والقلب مخلوق لعمل الآخرة طلباً لسعادته، وسعادته معرفة ربه عز وجل، ومعرفة ربه تعالى تحصل له من صنع الله وهو من جملة عالمه. ولا تحصل له معرفة عجائب العالم إلا من طريق الحواس، والحواس من القلب والقالب مركبه، ثم معرفة صيده ومعرفة شبكته، والقالب لا يقوم إلا بالطعام والشراب والحرارة والرطوبة، وهو ضعيف على خطر من الجوع والعطش في الباطن، وعلى خطر من الماء والنار في الظاهر، وهو مقابل أعداء كثيرة.

= ولكن قال الدهلوي في الحجة: قول الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ الآية ليست نصًّا في أنه لا يعلم أحد من الأمة حقيقة الروح كما يظن، وليس كل ما سكت عنه الشرع لا يمكن معرفته البتة، بل كثيراً ما يسكت عنه لدقته على العامة وإن أمكن معرفته للخاصة. قال: واعلم أن الروح أو ما يدرك من حقيقتها أنها مبدأ الحياة في الحيوان، وأنه يكون حيًّا بنفخ الروح فيه ويكون ميتاً بمفارقتها له، ثم إذا أمعن في التأمل ينجلي أن البدن بخار لطيف متولد في القلب من خلاصة الأخلاط يحمل القوة الحساسة والمحركة والمدبرة، وتختلف هذه القوة الحساسة باختلاف رقة هذا البخار وغلظته وصفائه وكدره، ومثل هذا البخار في البدن مثل ماء الورد في الورد، وكمثل النار في معنى الفحم. ثم إذا أمعن في النظر أيضاً انجلى أن هذا الروح مطية الروح الحقيقية ومادة لتعلقها، فالشيء الذي هو به ليس هذا الروح ولا هذا البدن، بل الروح في الحقيقة حقيقة فردانية ونقطة نورانية لها تعلق خاص بالروح المتكون من صحة المزاج، والحيوية الناشئة عن التفاعل الكيميائي الناتج من الغذاء.

فصل

وتحتاج أن تعرف العسكرين؛ وذلك أن العسكر الظاهر هو الشهوة والغضب ومنازلهم في اليدين والرجلين والعينين والأذنين وجميع الأعضاء؛ وأما العسكر الباطن فمنازله في الدماغ وهو قوى الخيال والتفكر والحفظ والتذكر والوهم، ولكل قوة من هذه القوى عمل خاص، فإن ضعف واحد منهم ضعف حال ابن آدم في الدارين. وجملة هذين العسكرين في القلب وهو أميرهما، فإن أمر اللسان أن يذكر ذكر، وإن أمر اليد أن تبطش بطشت، وإن أمر الرجل أن تسعى سعت، وكذلك الحواس الخمس حتى يحفظ نفسه كما يدخر الزاد للدار الآخرة ويحصل الصيد وتتم التجارة ويجمع بذر السعادة، وهؤلاء طائعون للقلب كما أن الملائكة طائعون للرب سبحانه وتعالى لا يخالفون أمره.

فصل في معرفة القلب وعسكره

اعلم أنه قيل في المثل المشهور: إن النفس كالمدينة، واليدين والقدمين وجميع الأعضاء ضياعها، والقوة الشهوانية واليها، والقوة الغضبية شحنتها، والقلب ملكها، والعقل وزيرها. والملك يدبرهم حتى تستقر مملكته وأحواله، لأن الوالي وهو الشهوة، كذاب فضولي مخلط، والشحنة وهو الغضب شرير قتال خراب، فإن تركهم الملك على ما هم عليه هلكت المدينة وخربت. فيجب أن يشاور الملك الوزير ويجعل الوالي والشحنة تحت يد الوزير، فإذا فعل ذلك استقرت أحوال المملكة وتعمرت المدينة. وكذلك القلب يشارو العقل ويجعل الشهوة والغضب تحت حكمه حتى تستقر أحوال النفس ويصل إلى سبب السعادة من معرفة الحضرة الإلهية، ولو جعل العقل تحت يد الغضب والشهوة هلكت نفسه وكان قلبه شقيًّا في الآخرة.

فصل

اعلم أن الشهوة والغضب خادمان للنفس جاذبان، يحفظان أمر الطعام والشراب والنكاح لحمل الحواس. ثم النفس خادم الحواس شبكة العقل وجواسيسه يبصر بها صنائع الباريء جلت قدرته، ثم الحواس خادم العقل وهو القلب سراج وشمعة يبصر بنوره الحضرة الإلهية، لأن الجنة وهي نصيب الجوف أو الفرج محتقرة في جنب تلك الجنة. ثم العقل خادم القلب، والقلب مخلوق لنظر جمال الحضرة الإلهية. فمن اجتهد في هذه الصنعة فهو عبد حق من غلمان الحضرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] معناه أنا خلقنا القلب وأعطيناه الملك والعسكر، وجعلنا

النفس مركبه حتى يسافر عليه من عالم التراب إلى أعلى عليين، فإذا أراد أن يؤدي حق هذه النعمة جلس مثل السلطان في صدر مملكته، وجعل الحضرة الإلهية قبلته ومقصده، وجعل الآخرة وطنه وقراره، والنفس مركبه، والدنيا منزله، واليدين والقدمين خدامه، والعقل وزيره، والشهوة عامله، والغضب شحنته، والحواس جواسيسه. وكل واحد موكل بعالم من العوالم يجمع له أحوال العوالم. وقوة الخيال في مقدم الدماغ كالنقيب يجمع عنده أخبار الجواسيس، وقوة الحفظ في وسط الدماغ مثل صاحب الخريطة[1] يجمع الرقاع من يد النقيب[2] ويحفظها إلى أن يعرضها على العقل، فإذا بلغت هذه الأخبار إلى الوزير يرى أحوال المملكة على مقتضاها.

فإذا رأيت واحداً منهم قد عصى عليك مثل الشهوة والغضب، فعليك بالمجاهدة، ولا تقصد قتلها؛ لأن المملكة لا تستقر إلا بهما. فإذا فعلت ذلك كنت سعيداً، وأديت حق النعمة، ووجبت لك الخلعة في وقتها، وإلا كنت شقيًّا ووجب عليك النكال والعقوبة.

فصل

تمام السعادة مبني على ثلاثة أشياء: قوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العلم[3]، فيحتاج أن يكون أمرها متوسطاً لئلا تزيد قوة الشهوة فتخرجه إلى الرخص

(١) الخريطة: وعاء من جلد أو نحوه يُشدّ على ما فيه.

(٢) النقيب: كبير القوم المعنيّ بشؤونهم.

(٣) كان أول من حدد وظائف النفس بشكل منهجي في العالم القديم الفيلسوف اليوناني أفلاطون، الذي جعل للنفس ثلاث قوى: القوة الشهوانية والقوة الغضبية والقوة العاقلة، وجعل النفس الشهوانية والنفس الغضبية تابعتين وخادمتين للنفس العاقلة. وقد شبه أفلاطون الإنسان وقواه وعناصره المختلفة بالمدينة الفاضلة التي كان يسعى إلى تأسيسها، حيث جعل سكان مدينته ثلاث طبقات: طبقة العمال وطبقة المحاربين وطبقة الحكام، فجعل طبقة العمال مقابلة للنفس الشهوانية في الإنسان، وطبقة المحاربين مقابلة للنفس الغضبية، وطبقة الحكام مقابلة للنفس=

فيهلك، أو تزيد قوة الغضب فتخرجه إلى الحمق فيهلك؛ فإذا توسطت القوتان بإشارة قوة العدل دل على طريق الهداية. وكذلك الغضب إذا زاد سهل عليه الضرب والقتل، وإذا نقص ذهبت الغيرة والحمية في الدين والدنيا، وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة. وكذا الشهوة إذا زادت كان الفسق والفجور، وإن نقصت كان العجز والفتور، وإن توسطت كان العفة والقناعة وأمثال ذلك.

فصل

اعلم أن للقلب مع عسكره أحوالاً وصفات بعضها يسمى أخلاق السوء، وبعضها أخلاق الحسن، فبالأخلاق الحسنة يبلغ درجة السعادة، والأخلاق السيئة هلاكه وخروجه للشقاء. وهذه كلها[1] تبلغ أربعة أجناس: أخلاق الشياطين، وأخلاق البهائم، وأخلاق السباع، وأخلاق الملائكة. فأعمال السوء من الأكل والشرب والنوم والنكاح هي أخلاق البهائم، وكذلك أعمال الغضب من الضرب والقتل والخصومة هي أخلاق السباع، وكذلك أعمال النفس وهي المكر والحيلة والغش وغير ذلك هي أخلاق الشياطين، وكذلك أعمال العقل التي هي الرحمة والعلم والخير هي أخلاق الملائكة.

= العاقلة. وكما تأتمر النفسان الشهوانية والغضبية بأوامر النفس العاقلة، فكذلك يجب أن يخضع العمال والمحاربون للحكام الذين يجب أن يكونوا من الفلاسفة برأيه.
ومن بين المسلمين نجد الفارابي وقد وضع تقسيماً مشابهاً لتقسيم أفلاطون، وقد وضح الفارابي آراءه هذه في كتاباته السياسية، ولا سيما كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» الذي حذا فيه حذو أفلاطون في مواضع، وجدد في مواضع أخرى.
والغزالي هنا يتبع نفس التقسيم الثلاثي لقوى النفس ـ بعد أن شبه النفس بالمدينة كما ذكر آنفاً ـ ثم يبين أن الخير في القوتين الشهوانية والغضبية أن يكون أمرهما متوسطاً، لا إفراط ولا تفريط، تبعاً للقول المأثور «خير الأمور أوسطها». والقوة العاقلة، أو قوة العلم، هي المؤهلة لرد شططها إلى التوسط، لما لها من سلطة آمرة عليها.

(١) أي الأخلاق السيئة والأخلاق الحسنة معاً.

فصل

واعلم أن في جلد ابن آدم أربعة أشياء: الكلب، والخنزير، والشيطان، والْمَلَك. والكلب مذموم في صفاته، وليس بمذموم في صورته. وكذلك الشيطان والملائكة ذمهم ومدحهم[1] في صفاتهم، وليس ذلك في صورهم وخلقهم. وكذلك الخنزير مذموم في صفاته، وليس بمذموم في خلقته.

وقد أمر ابن آدم بأن يكشف ظلم الجهل بنور العقل خوفاً من الفتنة كما قال النبي ﷺ: **«ما من أحد إلا وله شيطان ولي شيطان، وإن الله قد أعانني على شيطاني حتى ملكته»**[2] وكذلك الشهوة والغضب ينبغي أن يكونا تحت يد العقل، فلا يفعلا شيئاً إلا بأمره، فإن فعل ذلك صح له حسن الأخلاق، وهي صفات الملائكة وهي بذر السعادة. وإن عمل بخلاف ذلك فخدم الشهوة والغضب صح له الأخلاق القبيحة، وهي صفات الشياطين وهو بذر الشقاء، فيتبين له في نومه كأنه قائم مشدود الوسط يخدم الكلب والخنزير، وكان مثله كمثل رجل مسلم يأخذ رجالاً مسلمين يحبسهم عند كافرين. فكيف يكون حالك يوم القيامة إذا حبست الملك وهو العقل تحت يد الشهوة والغضب وهما الكلب والخنزير؟

---

(١) أي ذم الشياطين ومدح الملائكة؛ لأن الشياطين تذم فقط ولا تمدح، والملائكة تمدح فقط ولا تذم.

(٢) روى مسلم في صحيحه، كتاب صفة المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ٧٠، والإمام أحمد في المسند ج ٦ ص ١١٥، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «مالك يا عائشة! أغرت؟» فقلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أقد جاءك شيطانك؟» قالت: يا رسول الله! أومعي شيطان؟ قال: «نعم» قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نعم» قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم».

فصل

واعلم أن الإنسان في صورة ابن آدم اليوم، وغداً تنكشف له المعاني فتكون الصور في معنى المعاني؛ فأما الذي غلب عليه الغضب فيقوم في صورة الكلب، وأما الذي غلب عليه الشهوة فيقوم في صورة الخنزير؛ لأن الصور تابعة للمعاني، وإنما يبصر النائم في نومه ما صح في باطنه. وإنما عرفت أن الإنسان في باطنه هذه الأربعة، فيجب أن يراقب حركاته وسكناته، ويعرف من أي الأربعة هو، فإن صفاته تحصل في قلبه وتبقى معه إلى يوم القيامة، وإن بقي من جملة الباقيات الصالحات شيء فهو بذر السعادة، وإن بقي معه غير ذلك فهو بذر الشقاء، وابن آدم لا ينفك ولا ينفصل عن حركة أو سكون، وقلبه مثل الزجاج. وأخلاق السوء كالدخان والظلمة، فإذا وصل إليه ذلك أظلم عليه طريق السعادة. وأخلاق الحسن كالنور والضوء، فإذا وصل إلى القلب طهره من ظلم المعاصي كما قال رسول الله ﷺ: **«أتبع السيئةَ الحسنة تمحها»**[1]. والقلب إما مضيء أو مظلم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

فصل

واعلم أن الشهوة والغضب اللتين في البهائم جعلتا أيضاً في ابن آدم، ولكنه أُعطي شيئاً آخر[2] زيادة عليها للشرف والكمال، وبذلك تحصل له معرفة الله

---

(١) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». رواه الترمذي في كتاب البر والصلة باب ٥٥ وصححه، والدارمي في الرقائق باب ٧٤، والإمام أحمد في المسند ج ٥ ص ١٥٣. وروى الإمام أحمد (ج ٥ ص ٢٢٨، ٢٣٦) عن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ أتبع السيئة بالحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

(٢) يعني القوة العاقلة.

تعالى، وجملة عجائب صنعه، وبه يخلص نفسه من يد الشهوة والغضب وتحصل له صفات الملائكة، ولذلك يظفر بالسباع والبهائم وتصير كلها مسخرة له كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً﴾ [الجاثية: ١٣].

فصل في عجائب القلب

اعلم أن للقلب بابين للعلوم: واحد للأحلام، والثاني لعالم اليقظة، وهو الباب الظاهر إلى الخارج؛ فإن نام غلق باب الحواس، فيفتح له باب الباطن، ويكشف له غيب من عالم الملكوت ومن اللوح المحفوظ فيكون مثل الضوء، وربما احتاج كشفه إلى شيء من تعبير الأحلام. وأما ما كان من الظاهر فيظن الناس أن به اليقظة وأن اليقظة أولى بالمعرفة مع أنه لا يبصر في اليقظة شيء من عالم الغيب، وما يبصر بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة مما يبصر من طريق الحواس.

فصل

وتحتاج أن تعرف في ضمن ذلك أن القلب مثل المرآة، واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضاً؛ لأن فيه صورة كل موجود؛ وإذا قابلت المرآة بمرآة أخرى حلت صور ما في إحداهما في الأخرى، وكذلك تظهر صور ما في اللوح المحفوظ إلى القلب إذا كان فارغاً من شهوات الدنيا، فإن كان مشغولاً بها كان عالم الملكوت محجوباً عنه، وإن كان في حال النوم فارغاً من علائق الحواس طالع جواهر عالم الملكوت فظهر فيه بعض الصور التي في اللوح المحفوظ، وإذا أغلق باب الحواس كان بعده الخيال، لذلك يكون الذي يبصره تحت ستر القشر، وليس كالحق الصريح مكشوفاً. فإذا مات، أي القلب، بموت صاحبه لم يبق خيال ولا حواس، وفي ذلك الوقت يبصر بغير وهم وغير خيال، ويقال له: ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ [ق: ٢٢].

فصل

واعلم أنه ما من أحد إلا ويدخل في قلبه الخاطر المستقيم وبيان الحق على سبيل الإلهام، وذلك لا يدخل من طريق الحواس بل يدخل في القلب لا يعرف من أين جاء؛ لأن القلب من عالم الملكوت، والحواس مخلوقة لهذا العالم - عالم الملك - فلذلك يكون حجابه عن مطالعة ذلك العالم إذا لم يكن فارغاً من شغل الحواس.

فصل

ولا تظنن أن هذه الطاقة تنفتح بالنوم والموت فقط، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة، وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة. فإذا جلس في مكان خال وعطل طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال دائماً: «الله الله الله» بقلبه دون لسانه، إلى أن يصير لا خبر معه من نفسه ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئاً إلا الله سبحانه وتعالى[1]، انفتحت تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة

(١) هذه هي الغيبة عن الصوفية. وهي كما عرفها الجرجاني في التعريفات ص١٦٣: غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، بل من أحوال نفسه بما يرد عليه من الحق إذا عظم الوارد واستولى عليه سلطان الحقيقة، فهو حاضر بالحق، غائب عن نفسه وعن الخلق. ومما يشهد على هذا قصة النسوة اللاتي قطعن أيديهن حين شاهدن يوسف، فإذا كانت مشاهدة جمال يوسف مثل هذا، فكيف يكون غيبة مشاهدة أنوار ذي الجلال؟ اهـ. أما الفناء عند الصوفية فهو الاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق. قال الكلاباذي في «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص١٢٣: الفناء هو أن يفنى عنه الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز، فناءً عن الأشياء كلها شغلاً بما فنى به كما قال عامر بن عبد الله: ما أبالي امرأة رأيت أم حائطاً! والذكر يؤدي إلى الفناء؛ قيل للجنيد: إن أبا الحسين النوري قائم في مسجد الشونيزي منذ أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام وهو يقول: الله الله، ويصلي الصلوات =

الذي يبصره في النوم، فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء، والصور الحسنة الجميلة الجليلة، وانكشف له ملكوت السموات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه كما قال النبي ﷺ: **«زُويت[1] لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها»**[2] وقال الله عز وجل: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ [الأنعام: ٧٥] لأن علوم الأنبياء عليهم السلام كلها كانت من هذا الطريق لا من طريق الحواس كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾ [المزمل: ٨] معناه الانقطاع عن كل شيء، وتطهير القلب من كل شيء، والابتهال إليه سبحانه وتعالى بالكلية؛ وهو طريق الصوفية في هذا الزمان. وأما طريق التعليم فهو طريق العلماء، وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبوة، وكذلك علم الأولياء لأنه وقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق كما قال سبحانه وتعالى: ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾ [الكهف: ٦٥] وهذه الطريقة لا تفهم إلا بالتجربة، وإن لم تحصل

= لأوقاتها، فقال بعض من حضره إنه صاح، فقال الجنيد: لا، ولكن أرباب المواجيد محفوظون بين يدي الله في مواجيدهم، فإن رُدَّ الفاني إلى الأوصاف لم يرد إلى أوصاف نفسه، ولكن يقام مقام البقاء بأوصاف الحق.

وأنشدوا في الفناء:

ذكرنا وما كنا لننسى فنذكُرُ ... ولكن نسيم القرب يبدو فيبهرُ
فأفنى به عني وأبقى به له ... إذا الحق عنه مخبرٌ ومعبّر

(١) أي جمعت وقبضت.

(٢) عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها...» الحديث. رواه مسلم في الفتن حديث رقم ١٩، وأبو داود في الفتن باب ١، والترمذي في الفتن باب ١٤، وابن ماجه في الفتن باب٩، والإمام أحمد في مسنده ج٥ ص٢٧٨، ٢٨٤. ورواه أحمد أيضاً (ج٤ ص١٢٣) من حديث شداد بن أوس عنه ﷺ.

بالذوق لم تحصل بالتعليم[1]؛ والواجب التصديق بها حتى لا تحرم شعاع سعادتهم، وهو من عجائب القلب. ومن لم يبصر لم يصدق كما قال سبحانه وتعالى: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ [يونس: ٣٩] وقوله: ﴿وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ [الأحقاف: ١١].

فصل

ولا تحسب أن هذا خاص بالأنبياء والأولياء؛ لأن جوهر ابن آدم في أصل الخلقة موضوع لهذا كالحديد لأن يعمل منه مرآة ينظر فيها صورة العالم، إلا الذي صدأ فيحتاج إلى إجلاء، أو جدب فيحتاج إلى صقل أو سبك، لأنه قد تلف، وكذلك كل قلب إذا غلب عليه الشهوات والمعاصي لم يبلغ هذه الدرجة، وإن لم تغلب عليه تلك الدرجة كما قال النبي ﷺ: **«كل مولود يولد على فطرة الإسلام»**[2] وقال الله تعالى: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢] وكذلك بنو آدم في فطرتهم التصديق بالربوبية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ [الروم: ٣٠] والأنبياء والأولياء هم بنو آدم، قال سبحانه وتعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ [فصلت: ٦] فكل من زرع حصد، ومن مشى وصل، ومن طلب وجد. والطلب لا يحصل إلا بالمجاهدة ـ طلب شيخ بالغ عارف قد مشى في هذا الطريق ـ وإذا حصل هذان الشيئان لأحد فقد أراد الله له التوفيق والسعادة بحكم أزلي حتى يبلغ إلى هذه الدرجة.

(١) وهذا كما آل إليه التصوف بعد عصر الغزالي، حيث أصبح عبارة عن حلقات يتلقى فيها المريد قوانين التصوف عن بعض الشيوخ، فإذا كان الشيخ من العارفين اهتدى المريد على يديه إلى طريق الاستقامة. أما تصوف الغزالي فقد استقاه من هدي النبوة مباشرة دون توسط المشايخ. وهذا النوع من التصوف هو لأصحاب الهمم العالية كالغزالي وأمثاله.

(٢) رواه بألفاظ وأسانيد مختلفة أحمد ومالك والشيخان وأبو داود والترمذي والدارمي.

فصل
في أن اللذة والسعادة لابن آدم في معرفة الله سبحانه وتعالى

اعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحته ولذة كل شيء تكون بمقتضى طبعه، وطبع كل شيء ما خلق له؛ فلذة العين في الصور الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة؛ ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى، لأنه مخلوق لها. وكل ما لم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به، مثل الشطرنج[1] إذا عرفها فرح بها، ولو نهي عنها لم يتركها ولا يبقى له عنها صبر. وكذلك إذا وقع في معرفة الله[2]

(١) لعبة ذات أصل هندي، تلعب على رقعة من أربعة وستين مربعاً، وتمثل دولتين متحاربتين باثنتين وثلاثين قطعة تمثل الملكين والوزيرين والخيالة والقلاع والفيلة والجنود.

(٢) أجمع المتصوفة على أن معرفة الله تعالى لا تتم بالعقل، فالدليل عندهم على الله هو الله وحده، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل في حاجته إلى الدليل، لأنه محدث، والمحدث لا يدلّ إلا على مثله. وقال رجل للنوريّ: ما الدليل على الله؟ قال: الله. قال: فما العقل؟ قال: العقل عاجز، والعاجز لا يدلّ إلا على عاجز مثله.

وقال ابن عطاء: العقل آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية. وقال غيره: العقل يجول حول الكون، فإذا نظر إلى المكوّن ذاب.

وأنشدوا لبعض الكبار:

من رامه بالعقل مسترشداً ... سرَّحه في حيرة يلهو
وشاب بالتلبيس أسراره ... يقول من حيرته هل هُو

وقال آخر من أهل المعرفة:

لم يبق بيني وبين الحق تبياني ... ولا دليلٌ ولا آياتُ برهاني
هذا تجلّي طلوع الحق نائرةً ... قد أزهرت في تلاليها بسلطان
لا يعرف الحق إلا من يعرّفُهُ ... لا يعرف القِدَميَّ المحدثُ الفاني
لا يستدلّ على الباري بصنعته ... رأيتم حدثاً يُنْبي عن أزمان
كان الدليل له منه إليه به ... من شاهد الحق في تنزيل فرقان
كان الدليل له منه به وله ... حقًّا وجدناه بل علماً بتبيان

سبحانه وتعالى فرح بها [1]، ولم يصبر عن المشاهدة، لأن لذة القلب المعرفة، وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر؛ ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو علم الملك لكان أعظم فرحاً.

وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى، لأن شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم آثار صنعته، فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته. وكل لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس وهي تبطل بالموت، ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب فلا تبطل بالموت؛ لأن القلب لا يهلك بالموت بل تكون لذته أكثر وضوؤه أكبر لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء.

فصل

واعلم أن نفس ابن آدم مختصرة من العالم، وفيها من كل صورة في العالم أثر منه؛ لأن هذه العظام كالجبال، ولحمه كالتراب، وشعره كالنبات، ورأسه مثل

= هذا وجودي وتشريحي ومعتقدي　　هذا توحد توحيد وإيماني
هذا عبارة أهل الانفراد به　　ذوي المعارف في سرٍّ وإعلان
هذا وجود وجود الواجدين له　　بني التجانس أصحابي وخلاّني

وقد أجمعوا أنه لا يعرفه إلا ذو عقل، لأن العقل آلة للعبد يعرف به ما عرف، وهو بنفسه لا يعرف الله تعالى.

قال أبو بكر السباك: لما خلق الله العقل قال له: من أنا؟ فسكت. فكحله بنور الوحدانية ففتح عينيه فقال: أنت الله لا إله إلا أنت.

فلم يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله.

(انظر التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص ٦٣ - ٦٦).

(١) أي فرح بهذه المعرفة.

السماء، وحواسه مثل الكواكب، وتفصيل ذلك طويل؛ وأيضاً فإن في باطنه صناع العالم، لأن القوة التي في المعدة كالطباخ، والتي في الكبد كالخباز، والتي في الأمعاء كالقصار [1]، والتي تبيض اللبن وتحمر الدم كالصباغ. وشرح ذلك طويل، والمقصود أن تعلم كم في باطنك من عوالم مختلفة كلهم مشغولون بخدمتك، وأنت في غفلة عنهم، وهم لا يستريحون، ولا تعرفهم أنت ولا تشكر من أنعم عليك بهم.

فصل
في معرفة تركيب الجسد ومنافع الأعضاء التي يقال عنها في علم التشريح

وهو علم عظيم، والخلق غافلون عنه، وكذلك علم الطب. فكل من أراد أن ينظر في نفسه وعجائب صنع الله تعالى فيها، يحتاج إلى معرفة ثلاثة أشياء من الصفات الإلهية:

الأولى: أن يعرف أن خالق الشخص قادر على الكمال وليس بعاجز، وهو الله سبحانه وتعالى. وليس عمل في العالم بأعجب من خلق الإنسان من ماء مهين، وتصوير هذا الشخص بهذه الصورة العجيبة كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾ [الإنسان: ٢] فإعادته بعد الموت أهون عليه؛ لأن الإعادة أسهل من الابتداء.

الثانية: معرفة علمه سبحانه وتعالى وأنه محيط الأشياء كلها؛ لأن هذه العجائب والغرائب لا تمكن إلا بكمال العلم.

الثالثة: أن تعلم أن لطفه ورحمته وعنايته متعلقة بالأشياء كلها، وأنها لا نهاية لها، لما ترى في النبات والحيوان والمعادن في سعة القدرة وحسن الصور والألوان.

(١) القصار: المبيض للثياب.

فصل

في تفصيل خلقة بني آدم لأنها مفتاح معرفة الصفات الإلهية وهو علم شريف

وذلك معرفة عجائب الصنائع الإلهية، ومعرفة عظم الله سبحانه وتعالى وقدرته، وهو مختصر معرفة القلب. وهو علم شريف إذ هو معرفة الصنائع الالهية، لأن النفس كالفرس، والعقل كالراكب، وجماعهما الفارس، ومن لم يعرف نفسه وهو يدعي معرفة غيره فهو كالرجل المفلس الذي ليس له طعام لنفسه وهو يدعي أنه يقوت فقراء المدينة، فهذا محال.

فصل

إذا عرفت هذا العز والشرف والكمال والجمال والجلال، بعد أن عرفت جوهر القلب أنه جوهر عزيز قد وهبّ لك وبعد ذلك خفي عنك، فإن لم تطلبه وغفلت عنه وضيعته كان ذلك حسرة عظيمة عليك يوم القيامة؛ فاجتهد في طلبه، واترك أشغال الدنيا كلها! وكل شرف لم يظهر في الدنيا فهو في الآخرة فرح بلا غمّ، وبقاء بلا فناء، وقدرة بلا عجز، ومعرفة بلا جهل، وجمال وجلال عظيمان؛ وأما اليوم فليس شيء أعجز منه لأنه مسكين ناقص؛ وإنما الشرف غداً إذا طرح من هذه الكيمياء على جوهر قلبه حتى يخلص منه شبه البهائم، ويبلغ درجة الملائكة، فإن رجع إلى شهوات الدنيا فضلت عليه البهائم يوم القيامة لأنها تصير إلى التراب، ويبقى هو في العذاب. نعوذ بالله من ذلك، ونستجير به، وهو نعم المولى ونعم النصير، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[تمت كيمياء السعادة وتليها القواعد العشرة]